بسمه تعالى

لا ينبغي التخلي عن الطريقة المتوارثة
من السلف الصالح في إقامة عزاء
سيد الشهداء (أرواحنا فداه)

الأطوار والأوزان في المراثي

الشَّعائِرُ في سِيرَةِ المُتَشَرِّعَةِ ١

حسن يوسف بن نخي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ

الأطوار والأوزان في المراثي

المحتويات

تمهيد.....٣
الغناء وأطوار أهل اللهو مما لم تقم عليه سيرة.....٧
طبيعة الإنشاد في العصور المتقدمة.....١٠
الأطوار الطبيعية والمصطنعة.....١٥
الإبكاء لا يسوغ الخطأ.....٢٣
الأوزان الدخيلة.....٣٠
الأطوار التي جرت عليها السيرة.....٣٣
تاريخ الإنشاد.....٣٤
شروط الألحان في المراثي.....٤٦
الخاتمة والنتيجة.....٤٨

تمهيد

روايات فضل البكاء وإنشاد المراثي في مصائب أهل البيت عليهم السلام مستفيضة بل متواترة لسنا نرغب في إحصائها هنا وقد أفرد لها علماؤنا أبوابًا في كتب الحديث، غير أنه من المهم البحث في طرق الإنشاد التي جرت عليها السيرة والتي توارثناها عن السلف الصالح، ومعرفة مدى اتصال هذه السيرة بزمن النص، ومنه تُعرف الكيفيات المناسبة للإنشاد في رثاء أهل البيت عليهم السلام، وما هي الضوابط المطلوبة في الإنشاد مضافًا إلى ضابطة حرمة إنشاد ألحان أهل الفسوق والمعاصي.

ولمعرفة ذلك لابد من التوقف عند بعض النصوص، التي تُستنبط منها سيرة الأصحاب الذين عملوا بأوامر الأئمة عليهم السلام في زمن النص، وتحليل هذه النصوص وفق المعطيات التاريخية والأدبية لطرق الإنشاد في تلك الأزمنة.

ومناقشة مدى اتصال هذه السيرة عبر القرون بقدر ما يتوفر من شواهد وأدلة تاريخية. ومن الروايات التي لابد من دراستها في هذا الصدد:

- عن أبي هارونَ المكفوف قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا هارون

أنشدني في الحسين عليه السلام؟ قال: فأنشدته. فبكى، فقال: أنشدني كما تنشدون يعني بالرّقّة[1]. قال: فأنشدته:

امْرُرْ عَلى جَدَثِ الحسينِ فَقُلْ لأعْظُمِهِ الزَّكيَّة

قال: فبكى، ثمَّ قال عليه السلام: زِدْني، قال: فأنشدته القصيدة الأخرى، قال: فبكى، وسمعتُ البكاء مِن خلفِ السَّتر، قال: فلمّا فرغتُ قال لي: يا أبا هارون مَن أنشد في الحسين شِعراً فبكى وأبكى عَشْراً كُتبتْ لهم الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شِعراً فبكى وأبكى خمسةً كُتبت لهم الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شعرًا فبكى وأبكى واحدًا كُتبتْ لهما الجنّة، ومَن ذكر الحسين عليه السلام عنده فخَرج مِن عينه مِن الدُّموع مِقدار جَناح ذُباب كان ثوابه على الله، ولم يَرضَ له بدون الجنّة.

• عن أبي عُمارة المُنْشِد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال لي: يا أبا عُمارة أنْشِدْني في الحسين عليه السلام، قال: فأنشدته فبكى، ثمَّ أنشدته فبكى، ثمّ أنشدته فبكى، قال: فوالله ما زلتُ أُنشِدُه ويبكي حتّى سَمعتُ البكاء مِن الدَّار، فقال

---

(١) عبارة (يعني بالرقة) يحتمل أن تكون من الإمام عليه السلام أو من الراوي، وفي الحالين تكون حجة لأنها تنبئ إما عن أمر المعصوم عليه السلام أو عن فهم الراوي لأمر المعصوم وعمله بما أمر.

لي: يا أبا عُمارة مَن أنشَدَ في الحسين شِعراً فأبكى خمسينَ فله الجنَّة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعرًا فأبكى أربعين فلَه الجنّة، ومَن أنشد في الحسين شِعرًا فأبكى ثلاثين فلَهُ الجنة، ومَن أنشَدَ في الحسينِ شِعرًا فأبكى عشرين فلَه الجنّة، ومن أنشدَ في الحسين شِعرًا فأبكى عشرة فلَه الجنّة، ومَن أنشَدَ في الحسين عليه السلام شِعرًا فأبكى واحِداً فله الجنّة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعرًا فبكى فلَه الجنّة، ومَن أنشَدَ في الحسين شِعرًا فتباكى فلَه الجنّة.

- عن عبد الله بن غالب قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأنشدته مَرْثِيةَ الحسين عليه السلام، فلمّا انتهيتُ إلى هذا الموضع:

لَبلِيَّة تَسقو حُسَيناً بمَسقاةِ الثَّرى غَير التُّرابِ[٢]

فصاحت باكية من وراء السّتر: وا أبتاه!

- عن أبي هارونَ المكفوف قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: أنشِدْني، فأنشدتُه، فقال: لا؛ كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره، قال: فأنشدته:

أُمْرُرُ عَلى جَدَثِ الحُسَينِ فَقُل لأعْظُمِهِ الزَّكيَّةِ

---

(٢) في البيت سقط، ولعل الصحيح: (فيا لبلية تسقو حسينا)

قال: فلمّا بكى أمسكت أنا. فقال: مُرَّ، فمررت، قال: ثمَّ قال: زِدني زِدني، قال: فأنشدته:

يا مَريمُ قُومي فانْدُبي مَولاكِ وَعَلى الحُسَين فأسْعِدي بِبُكاكِ

قال: فبكى وتهايج النّساء! قال: فلمّا أن سَكتن، قال لي: يا أبا هارون مَن أنشد في الحسين عليه السلام فأبكى عشرة فله الجنّة، ثمَّ جعل ينقّص واحِدًا واحِدًا حتّى بلغ الواحد، فقال عليه السلام: من أنشد في الحسين فأبكى واحِدًا فله الجنّة، ثمّ قال: مَن ذَكرَه فبكى فله الجنّة.[٣]

ومن البديهي في هذه الأخبار ونظائرها أن السيرة جارية في بيوت الأئمة عليهم السلام على الرثاء وإقامة مآتم الحسين عليه السلام، ومحل البحث هنا معرفة كيفية الإنشاد المأمور بها والأطوار والطرق التي جرت عليها السيرة من زمن النص، وبأي كيفية كان ينشد الأصحاب، وما هي الكيفية التي أمر الإمام عليه السلام أبا هارون المكفوف أن يعدل إليها.

---

(٣) راجع كامل الزيارات الباب الثّالث والثّلاثون: (مَن قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبْكى)

الغناء وأطوار أهل اللهو مما لم تقم عليه سيرة

يستفاد من الروايات أن الرثاء ينبغي أن يكون بلحن حزين من عدة عناوين متكررة في الروايات الشريفة، وهي: (النياحة)، و(الإنشاد)، و(كما ترثيه عند قبره).

ولا شك في حرمة الغناء إلا أن العلماء اختلفوا في تعريفه، وحين اختلفوا في التعريف ذكر بعضهم بأنه يتقوّم بالكلام اللهوي وألحان أهل الباطل، ثم استدركوا بأن كلام الحق إذا جيء بألحان أهل اللهو حرم أيضًا. وقال بعضهم أن الغناء يتقوّم بالمد والترجيع وترقيق الصوت، ثم استدركوا أن هذا المد والترجيع إذا جيء به على نحو لا يناسب أهل اللهو والباطل لم يكن محرمًا. واختلفت كلمات الأعلام في حدِّ الغناء وتعريفه[٤]، واتفقوا إجمالا في تعيين مصاديق المحرم منه، فرغم وجود اختلاف في تعريف الغناء، إلا أنه لم يلحظ اختلاف معتدٌّ به في مصاديق الغناء المحرم.

---

(٤) من المناسب الرجوع إلى بحث السيد الخميني قدس سره في بيان حدّ الغناء والأقوال فيه، راجع المكاسب المحرمة ١/ ١٩٨

ثم ذكروا بعض ما يستثنى من الغناء المحرم، وأكثر ما ذكروه في المستثنيات (الحداء) فقال بعضهم أنه من القسم المحلل من الغناء[٥]، وقال بعضهم أنه غير داخل في الاصطلاح الشرعي للغناء وإن عد لغة منه[٦]، وقال بعضهم أنه ليس من الغناء أصلا[٧].

هذا فإن وجد في علمائنا من يجيز الغناء في المراثي الحسينية فإنه يجيزها ما لم تكن على النحو المتعارف عند أهل اللهو والفسق والفجور، أي أن اصطلاح الغناء عنده يشمل الغناء لغة ولا يختص بالمحرم منه.

وأشهر من نُسب له أنه يجيز الغناء في المراثي الحسينية هو الفاضل الدربندي قدس سره إلا أن من نسب له ذلك فقد أساء فهمه قطعًا، فقد صرّح

---

(٥) مثلا السيد محسن الحكيم قدس سره في منهاج الصالحين ٢/ ١٠

(٦) يفهم ذلك من كلام السيد الخوئي قدس سره، حيث سئل: ذكرتم في المسألة ١٧ من المنهاج ج٢ بأن الغناء حرام إذا وقع على وجه اللهو والباطل، فهل يفهم من هذه العبارة وجود غناء حلال لا يقع على وجه اللهو والباطل حسب مفهوم الشرط في مسألتكم؟ الخوئي: نعم فإن الغناء بحسب معناه اللغوي أعم من ذلك، فيشمل كل صوت حسن ولذلك أمر في بعض الأحاديث بالتغني بالقرآن. صراط النجاة ١/ ٣٧٢ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ

(٧) مثلا السيد السيستاني دام ظله في منهاج الصالحين ٢/ ٢٢ (طبعة ١٤٤٥هـ)

رضوان الله عليه بأن الغناء الذي يجيزه في المراثي هو نفس ما يجيزه محققي الأصحاب وسائر علماء الطائفة، وصرّح بأنه يستشكل في بعض المقامات وما يصدر من البعض الذين يتشبهون بأصحاب الملاهي والملاعب وأهل التكيفات القبيحة في الغناء والطرب[٨].

وعلى ذلك فإن الرثاء بألحان أهل اللهو والباطل مما لم تقم عليه سيرة قطعًا، وهو محل إنكار علماء الطائفة، والمراد من (الإنشاد بالرقة كما تنشدون) و(كما تنشدون عند قبر الحسين عليه السلام) أمر مختلف عن الطرق المتعارفة عند أهل الباطل وقد نهى عنها الشارع وإن كانت سببًا في استدرار الدمعة والإبكاء.

يقول الشيخ الأعظم قدس سره: ومن أوضح تسويلات الشيطان: أنّ الرجل المتستّر[٩] قد تدعوه نفسه لأجل التفرّج والتنزّه والتلذذ إلى ما يوجب نشاطه ورفع الكسالة عنه من الزمزمة الملهية، فيجعل ذلك في بيت من الشعر المنظوم في الحِكم والمراثي ونحوها، فيتغنى به، أو يحضر عند من يفعل ذلك. وربّما يُعِدّ

---

(٨) أسرار الشهادات ١/ ١٧٦

(٩) المتستر: الذي يعصي مستترًا، يقابله المستهتر الذي يجاهر بالمعصية

مجلساً لأجل إحضار أصحاب الألحان، ويسمّيه مجلس المرثية فيحصل له بذلك ما لا يحصل له من ضرب الأوتار من النشاط والانبساط، وربّما يبكي في خلال ذلك لأجل الهموم المركوزة في قلبه، الغائبة عن خاطره، من فقد ما تستحضره القوى الشهويّة، ويتخيّل أنّه بكى في المرثية وفاز بالمرتبة العالية، وقد أشرف على النزول إلى دركات الهاوية؛ فلا ملجأ إلّا إلى الله من شرّ الشيطان والنفس الغاوية.[١٠]

إذن فما هو الإنشاد المطلوب؟ لبيان ذلك لا بد من معرفة طبيعة الإنشاد في ذلك العصر.

طبيعة الإنشاد في العصور المتقدمة

كانت العرب تنشد أشعارها في الجاهلية وصدر الإسلام بطرق خاصة، أما الغناء فكان شأن الجواري المغنيات (القيان) ولم يكن شائعًا أن رجلا يمتهن الغناء؛ لذلك لا تجد في كتب الفقه البحث عن أحكام (العبد المغني) وإنما

(١٠) المكاسب ١/ ٢٩٧ في بحث المسألة الثالثة عشر الغناء.

الكلام كله في (الجارية المغنية)، ولم تكن الحرّة تمتهن الغناء أيضًا، وإنما هذا شأن المماليك لما فيه من ضعة وامتهان وابتذال.

وفي العصر الأموي بدأ المخنثون من الرجال بممارسة الغناء، وصار غناء الرجال ظاهرة جديدة في المجتمع العربي لا يصدر إلا من السفلة لما فيه من غنج ومياعة وخفة. وأوّل من غنّى بالعربية في المدينة (طويس)، وهو أوّل من ألقى الخنث بها[١١].

وحُكي أنه سمع الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ذات يوم أحدهم يغني في عسكره، فطلبه وجاؤوا به. قال له: أعد ما غنيت. فأعاد واحتفل. فقال سليمان لأصحابه: والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول[١٢]، وما أحسب

---

(١١) الأغاني ٣/ ٢١

(١٢) الشُّوَّل جمع شائل، وهي الناقة التي تشول بذنبها للقاح. والمقصود أن هذا المد والترجيع في صوت المغني كجرجرة وترجيع فحل الإبل صوته حين يأتي الناقة فتثار شهوتها، ووجه الشبه أن هذا الصوت يثير شهوة النساء ويستميلهن.

أنثى تسمع هذا إلا صبت[١٣] إليه! ثم أمر به فخصي.[١٤]

وسأل سليمان بن عبد الملك عن الغناء أين أصله؟ فقيل: بالمدينة في المخنّثين، هم أئمّته والحذّاق فيه. فكتب إلى عامله على المدينة، أن أخص من قبلك من المخنّثين المغنّيين.[١٥]

وبعد انقضاء حكم بني أمية، وقيام الدولة العباسية بحضارتها، وعلى إثر تزايد الترف في العصر العباسي وسعة التبادل الثقافي مع سائر الأمم بدأت تنكسر هذه الحواجز الاجتماعية، وظهر المغنون كإسحاق الموصلي ومخارق المغني وغيرهم، ومن أهم عوامل انتشار الغناء أن إبراهيم بن المهدي العباسي (وهو ابن جارية مغنية اسمها شكلة) كان مولعًا بالغناء، ومعه أخته عُليّة (أمها جارية مغنية اسمها مكنونة)، ما خلع على الغناء مشروعيته ومقبوليته الاجتماعية، فشيخ المغنين هو إبراهيم ابن المهدي العباسي أخو الهادي والرشيد

---

(١٣) صبت: مالت ورغبت.

(١٤) العقد الفريد، ابن عبد ربه ٧/ ٥٥

(١٥) الأغاني ٤/ ٤٤٤

وعم الأمين والمأمون والمعتصم.[١٦]

يقول جرجي زيدان: وكان الغناء يزداد إتقانًا ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف، ولذلك كثروا في أواخر الدولة الأموية وأواسط الدولة العباسية. ومن أشهر المغنين ابن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفيلج بن أبي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وغيرهم. ومن المغنيات جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهن.

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة، كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند، فتناولها المسلمون ودرسوها وأصبحت الموسيقى علمًا عندهم بأصول، وقد جمعوا بين ألحان اليونان والهنود والفرس والعرب فألفوا فيه المؤلفات، فضلًا عما استنبطوه من الألحان أو اخترعوه من الآلات وكان للخلفاء عناية كبرى بالغناء، يبذلون الأموال في سبيل تنشيطه كما هو مشهور. وكانوا يشترطون في المغني أن يكون حافظًا للأشعار والنوادر، يحسن

(١٦) لتفصيل أكثر راجع تاريخ ابن خلدون ١/ ٥٣٨ دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١م

النحو والإعراب، فكان المغنون في الدولة العباسية من أحاسن أهل الأدب، وفيهم من يحسن الفقه فضلًا عن الأدب واللغة، كإبراهيم بن إسحاق الموصلي وغيره، وبعضهم كان عالمًا بالنجوم مثل زرياب المغني. وكثيرًا ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين ويجيزون المجيدين ويغدقون عليهم الرواتب والجواري، فقد كان راتب الموصلي عند الهادي عشرة آلاف درهم في الشهر، غير الصلات وغلات الضياع وغيرها ولما قدم زرياب المغني من العراق إلى الأندلس ركب الأمير عبد الرحمن بنفسه للقائه.

وقد أدخل الموسيقيون في فن الموسيقى ألحانًا لم تكن من قبل، وفيها ما لم يسبق له مثيل في تأثيره. ذكروا منها ألحانًا لا يقدر الشبعان الممتلئ على غنائها، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها، وأخرى لا يقدر المتكئ أن يغنيها حتى يقعد مستوفزًا، ولا القاعد حتى يقوم.[١٧]

وإني أجلّ القارئ الكريم عن التفصيل في تاريخ هذا المنكر ولم أنقل إلا ما اقتضته الضرورة لبيان حقيقة الغناء والمستقبح منه في الشرع للتفريق بينه

(١٧) تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان ٣/ ٢٢٩

وبين الإنشاد المتعارف عند العرب.

فإن الغناء المبني على أصول وقواعد ومعرفة المقامات هو الذي كان متعارفًا في أوساط أهل الملاهي واللعب والمنكر، تغنيه الجواري اللواتي يجلبن من خارج بلاد العرب، أما الإنشاد الساذج البسيط المتعارف عند العرب المتقوِّم بتقطيع الأبيات عروضيًّا فلم يكن هو المقصود من ألحان أهل اللهو والباطل، وكان يتعاطاه الرجال والنساء في قصائدهم.

وبغض النظر عن دخول الإنشاد في مفهوم الغناء لغة أو عدم دخوله فإن المستقبح منه في الشرع بات واضحًا.

الأطوار الطبيعية والمصطنعة

إن الإنشاد عند العرب إفراز طبيعي لثقافة العربي -لا يستدعي مغنيًّا أو قينة تطربه على إيقاعه- لذا ترى البدوي في نجد أو العراق أو الشام أو اليمن إذا أراد أن يحدو حدى بطريقة متشابهة مع الآخر دون اتفاق مسبق بينهم، وذلك يعود إلى طبيعة الصحراء وسعتها ومشقة الترحل في الصحاري المقفرة، والمسير المتواصل ليل نهار، هذا ومع إيقاع أخفاف الإبل ترنم الحادي بالرجز،

فلما رأى الإبل تستجيب وتجد السير استرسل في النظم والإنشاد، فنشأ عندهم الإنشاد بهذه الطريقة.[١٨]

يقول ابن خلدون: وهذا التّناسب الّذي من أجل الأجزاء والمتحرّك والسّاكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف في كتب الموسيقى، إلّا أنّهم لم يشعروا بما سواه لأنّهم حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة، وكانت البداوة أغلب نحلهم.[١٩]

وليس المهم بيان المنشأ في الكلام الموزون عند العرب[٢٠]، بل المهم بيان أن الإنشاد هو الأصل في قراءة الأشعار عندهم، وأن العرب تنظم لتترنم بكلامها. يقول أدونيس: ولد الشعر الجاهلي نشيدًا، أعني أنه نشأ مسموعًا لا مقروءًا، غناءً لا كتابة. ويقول في مورد آخر: ليس الإنشاد إلا شكلا من أشكال الغناء ويحفل الموروث الأدبي بالإشارات إلى ما يؤكد ذلك فكثيرًا ما يشبه

---

(١٨) راجع في نشأة الشعر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان ١/ ٧٠

(١٩) تاريخ ابن خلدون ١/ ٥٣٩

(٢٠) الشائع أن منشأ الكلام الموزون هو حداء الإبل، وقال بعضهم أن منشأه الرثاء، وقيل رجز الحروب، وقيل غير ذلك، وليس المقام مقام مناقشة هذه النكتة الأدبية الدقيقة.

الشعراء المنشدون بالطيور المغردة، وشُبه شعرهم المنشود بتغاريدها.[٢١]

وهذا ما نبّه عليه سيبويه من قبل بأن الشعر عند العرب وضع في الأصل للغناء والترنم؛ ولذلك تجدهم في قوافي قصائدهم ألحقوا الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت.

ومنه قولهم: (قِفاَ نَبكِ مِن ذِكْرَى حبيبٍ ومَنْزِلِي) بدلا عن (منزلٍ).

وقولهم: (فَبتناَ تَحِيدُ الوحشُ عنّا كأننا قتيلان لم يَعلمْ لنا الناسُ مَصْرعَا) بدلا عن (مصرعًا).

وقولهم: (هُرَيْرَةَ ودِّعْهَا وإنْ لامَ لائمُو) بدلا عن (لائمٌ).

ومنه قولهم أيضًا: (أَقلِّي اللوْمَ عاذِلَ والعِتابا) بدلا عن (والعتابَ).

وقولهم: (مَتى كان الخِيامُ بِذي طلوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أَيَّتهاَ الخِيامُو) بدلا عن (الخيامُ).

وقولهم: (أَيْهاتَ مَنزِلُنا بنعفِ سويقةٍ كانت مباركةً من الأيامي) بدلا عن (الأيامِ).

---

(٢١) الشعرية العربية، أدونيس ص٥ وص٧

ثم أخذ سيبويه في بيان مذاهب العرب في كيفية الإتيان بالقوافي إذا قالوا الشعر ولم يترنموا خلافًا للأصل.[٢٢]

ثم إن كيفية الغناء والإنشاد -بل جميع الفنون- راجعة إلى الأمزجة والطباع، وهي إفراز للطبيعة والظروف الإنسانية المحيطة. جاء في رسائل إخوان الصفا:

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن أمزجة الأبدان كثيرةُ الفنون وطباع الحيوانات كثيرةُ الأنواع، ولكُلِّ مزاج وكل طبيعة نغمةٌ تشاكلها ولحن يلائمها لا يحصي عددها إلا الله عز وجل. والدليلُ على حقيقة ما قلنا وصحة ما وصفنا أنك تجد إذا تأملت لكل أمة من الناس ألحانًا ونغمات يستلذونها ويفرحون بها، لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم، مثل غناء الديلم والأتراك والأعراب والأرمن والزنج والفرس والروم وغيرهم من الأمم المختلفة الألسُن والطباع والأخلاق والعادات. وهكذا أيضًا أنك تجدُ في الأمة الواحدة من هذه أقوامًا يستلذون ألحانًا ونغمات وتفرح نفوسُهُم بها،

---

(٢٢) راجع كتاب سيبويه ٤/ ٢٠٤ باب وجوه القوافي في الإنشاد

ولا يسر بها مَنْ سواهم، وهكذا أيضًا ربما تجد إنسانًا واحدًا يستلذُّ وقتًا ما لحنًا ويسره، ووقتًا آخرَ لا يستلذه بل ربما يكرهه ويتألم منه، وهكذا تجد حكمهم في مأكولاتهم ومشروباتهم وفي مشموماتهم وملبوساتهم وسائر الملاذ والزينة والمحاسن، كل ذلك بحسب تغيرات أمزجة الأخلاط واختلاف الطبائع وتركيب الأبدان والأماكن والأزمان.[٢٣]

فإذا اتضح ذلك عُلم الوجه في تشابه ألحان سكان البوادي في مختلف البلدان، فإن مزاج البدو الرحّل في الصحاري يتشابه لتشابه كل الحيثيات وإن اختلفت البلدان، ويتضح الوجه في تشابه ألحان سكان السواحل وإن اختلفت لغاتهم، وكيف تداخلت عاداتهم مع البلدان البعيدة بسبب كثرة الأسفار، ويتضح الوجه في تقارب أذواق كل فئة اجتماعية، فلكبار السن ذوق وللنساء ذوق وللمراهقين ذوق وللأطفال ذوق، فإن العمر له مقتضياته في بناء الذائقة.

كما أن الدين، والقيم والأخلاق والمروءة والشهامة والكرم والشجاعة والغيرة والحمية والحِلم والوقار وسائر مكارم الأخلاق، وفي المقابل فإن

---

(٢٣) رسائل إخوان الصفا ١/ ١٧٠

الانحلال وغيره من رذائل كل ذلك له دخل في بناء الذائقة؛ ذائقة الثياب والهندسة والطعام والشراب والأصوات وكل شيء، لأن الذوق شيء واحد، تجد للشباب المتهتك ذوق في ثيابه ومأكله ومشربه يختلف عن المتدين، ولا تجد طعام كبار السن متشابه مع طعام الأطفال والمراهقين، لأن عقل الرجل لو أراد أن يختار طعاما أو يختار ثوبًا أو يبني دارًا لكان بذوق واحد، كما أن لعقل المرأة دخل في ذلك. حتى اللهجات تتأثر بذلك فإن سكان البوادي والمناطق الجافة تخشن لهجتهم معهم، وأهل الكرم لهجتهم ذات ثروة لغوية عالية لأن الترحاب والاستئناس بالضيف وبسط الحديث يقتضي ذلك.

وكذلك يمكن معرفة الوجه في كون تصميم قصور بلاد الروم على هيئة أبراج مراقبة وذلك أن العمارة نشأت في بيئة حربية فكان الذوق كذلك، ومنه يعرف الوجه في كون نوافذ بيوت العرب مطلة على فناء داخلي لا على الشارع لاقتضاء الستر أن لا تطل نوافذ النساء على الخارج، وقد ألغيت في هندسة البيوت الحديثة غرفة الضيوف الخارجية ذات المدخل المستقل، للتمدّن الذي رسّخ ثقافة الشح.

والحاصل أن الذائقة في الرسم والتصوير والنحت والزخرفة، وحِلّي النساء وصناعة التحف والسجاد والحياكة والتطريز، وفن والمسرح، والهندسة والعمارة، وفن الطهي وطبيعة المأكل والمشرب وأشكال الثياب وألوانها، والهندام الخارجي للأفراد، وغير ذلك راجع إلى أصل واحد في كوامن النفس خلقته المعطيات من طباع متوارثة وعادات وآداب ومكارم أخلاق، وظروف من رفاهية وترف أو فقر وخشونة عيش، ومن انتصارات في حروب أو هزائم، أو أفراح وأحزان، أو استقرار وأمن واضطراب، وغيرها من ظروف تمر على الإنسان والمجتمع، كل ذلك خلق صورة منسجمة من كل هذه الأمور متناسبة مع مزاج صاحبها.

ولو تجلت هذه الخصال على هيئة صوت لكانت بألحان أهلها، ولو تدبّر المتدبر في الألحان التي يسمعها لعرف خصال صاحبها وظروفه وطبيعة بيئته، فإن تعسّر عليه فهم مقطوعة صوتية واحدة، فلن يتعسر عليه تحليل منظومة صوتية كاملة، لذلك قيل إنه غلب الحزن في ألحان العراق، ووجهه ظاهر لما في هذا البلد من آلام وأحزان حاضرة وموروثة.

ولتكسب الألحان مقبوليتها لا بد أن تكون بنحو متعارف عند أهل المروءات ومكارم الأخلاق، أما المتعارف عند المتهتكين المنحلّين اجتماعيًّا فلا قيمة له، فليس العرف بمحترم دائمًا، وإنما المحترم من الأعراف ما بنته المجتمعات المحافظة، ولذا فكون الألحان مألوفة ومتعارفة عند فئة من الناس مقبولة عندهم لا يضفي عليها مشروعية ما لم تكن مقبولة في آذان الشرفاء وأولي مكارم الأخلاق، وما إن تمجّها طباعهم فمن الواضح أنها ألحان وليدة رذيلة وانحطاط، ونتاج المجتمع الغارق في الرذيلة منحط مثله وإن كان يورث الحزن والبكاء! لأن أعراف المنحطين وعاداتهم منحطة مثلهم.

إن ذوي النفوس النبيلة وأولي مكارم الأخلاق والقيم الأصيلة تعف طباعهم عن الطرق المبتذلة في الإنشاد، وهذا أعم مما هو محرّم من الألحان، فإنه -بغض النظر عن حلية وحرمة اللحن- إذا كان بكيفية متناسبة مع أهل الخفة والطيش والابتذال كان قبيحًا حتى عند العصاة والفساق، لذا فإنك تجد الفساق من ذوي مكارم الأخلاق يتعاطون الغناء المحرم شريطة أن يكون متناسبًا مع قيم مجتمعهم. وأما إذا كان اللحن متناسبًا مع أهل الفسق والفجور

كان قبيحًا عند المتشرعة محرمًّا عندهم.

فنحن أمام عنوانين:

الأول: مناسبة اللحن لأهل اللهو والباطل ما يجعله في دائرة الحلية والحرمة، وهو قبيح عند المتشرعة قطعا.

الثاني: كون اللحن متكلفًا بعيدًا عن طبيعة المجتمع السليمة وعاداته الأصيلة في المجتمعات المحترمة، ما يجعله لحنا منبوذًا غير مقبول في مجالس أهل الوقار والأدب لا يُتعارف إنشاده في المجالس المحترمة.

الإبكاء لا يسوغ الخطأ

يرى بعض المؤمنين أنه يكفي لكون الطور واللحن مقبولا أن يكون مبكِيًا للمستمعين، وهذه مغالطة وهو كلام غير صحيح قطعًا.

الألحان المبكية كالألحان التي تورث السرور وكالتي تورث أي شعور في النفس، تخضع لنفس الضوابط الشرعية والذوقية، ولا يُعد الإبكاء ضابطة شرعية، خصوصًا إذا علم أن أهل الملاهي يحترفون التنغيم بأصواتهم وفق قواعد الغناء الفنية لإبكاء الناس وإضحاكهم.

وقد ذكر في حالات الفيلسوف الفارابي -وهو صاحب عدة تصانيف في الفلسفة والموسيقى وغيرها- أنه لما ورد على سيف الدولة وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأُدخل عليه وهو بزي الأتراك، وكان ذلك زيّه دائماً، فوقف، فقال له سيف الدولة: اقعد. فقال: حيث أنا أم حيث أنت؟ فقال: حيث أنت.

فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه! وكان على رأس سيف الدولة مماليك، وله معهم لسان خاص يسارهم به قل أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإني مسائله عن أشياء إن لم يوف بها فاخرقوا به، فقال له أبو نصر الفارابي بذلك اللسان: أيها الأمير، اصبر فإن الأمور بعواقبها!

فعجب سيف الدولة منه وقال له: أتحسن هذا اللسان؟ فقال: نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً، فعظم عنده. ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله، فصرفهم سيف الدولة وخلا

به، فقال له: هل لك في أن تأكل؟ فقال: لا. فقال: فهل تشرب؟ فقال: لا. فقال: فهل تسمع؟ فقال: نعم.

فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي، فلم يحرك أحد منهم آلته إلا وعابه وقال له: أخطأت.

فقال له سيف الدولة: وهل تحسن في هذه الصناعة شيئًا؟ فقال: نعم، ثم أخرج من سوطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيدانًا وركبّها، ثم لعب بها، فضحك منها كل من كان في المجلس! ثم فكها وركبّها تركيبًا آخر وضرب بها فبكى كل من في المجلس! ثم فكّها وغيّر تركيبها وحرّكها فنام كل من في المجلس حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج![٢٤]

وهذه الحكاية تؤكد أن الغناء والموسيقى وتعاطيه وفق ضوابط المقامات وفن الصوت وما يرتبط بهذه العلوم يمكّن صاحبه من إضحاك الناس وإبكائهم وتنويمهم وأغرائهم بما يشاء إذا أتقن الصنعة.

وفي هذا الصدد تنقل عدة قصص من مشاهير مغنيي العصر العباسي،

---

(٢٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ١٥٥

كمخارق المغني، الذي ذكر أنه كان يتمكن من إغراء الوحش لصيده بحسن صوته! منها أنه خرج يومًا إلى بعض المتنزّهات، فنظر إلى قوس مذهبة مع أحد من خرج معه، فسأله إيّاها، فكأنّ المسئول ضنّ بها.

وسنحت ظباء بالقرب منه، فقال لصاحب القوس: أ رأيت إن تغنّيت صوتا فعطفت عليك به خدود هذه الظباء، أ تدفع إليّ هذه القوس؟ قال: نعم، فاندفع يغني: ما ذا تقول الظّباء أ فرقة أم لقاء!...

قال: فعطفت الظّباء راجعة إليه حتى وقفت بالقرب منه، مستشرفة تنظر إليه مصغية تسمع صوته، فعجب من حضر من رجوعها ووقوفها! وناوله الرّجل القوس فأخذها وقطع الغناء، فعاودت الظّباء نفارها، ومضت راجعة على سننها.[٢٥]

وكذلك فإنه يستطيع أن يستعطف الخليفة فيبكيه دون سبب بصوته ليعفو عنه! حيث ذكروا أنه غضب المعتصم على مخارق فأمر به أن يجعل في المؤذّنين ويلزمهم، ففعل ذلك، وأمهل حتى علم أنّ المعتصم يشرب وأذّنت

---

(٢٥) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٨/ ٤٩٠

العصر، فدخل هو إلى السّتر حيث يقف المؤذّن للسلام -أي السلام على الخليفة قبل رفع الأذان-، ثمّ رفع صوته جهدَه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته، الصّلاة يرحمك الله.

فبكى المعتصم حتى جرت دموعه، وبكى كلّ من حضره. ثمّ قال: أدخلوه إليّ، ثم أقبل علينا وقال: سمعتم هكذا قطّ! هذا الشيطان لا يترك أحدا يغضب عليه! فأمر به فأُدخل إليه، فقبّل الأرض بين يديه، فدعاه المعتصم إليه وأعطاه يده فقبّلها، وأمره بإحضار عوده فأحضر، فأعاده إلى مرتبته.[٢٦]

ولم يكن فيما قاله مخارق ما يدعو للبكاء سوى أنه استطاع بتنغيمه السلام على الخليفة أن يُبكيَه ويستعطف قلبه، ففعل ذلك وأقر الخليفة أن هذا الاستعطاف كان من الشيطان فقال واصفا مخارقًا: هذا لا يترك الشيطان أحدا يغضب عليه! أي أن ألحان أهل الباطل قد يكون فيها ما هو مبكٍ يستعطف القلوب!

بل المستفاد من الروايات أن الأصل في الغناء المحرم أن يكون مبكيًّا!

---

(٢٦) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٨/ ٤٩٧

فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: الغناء نوح إبليس على الجنة.[٢٧]

ومخارق كان مغني عصره. ومما يذكر في فضائل إمامنا الجواد عليه السلام أن مخارقًا حاول بأمر المأمون العباسي إغراءه ويستدرجه إلى هذه المنكرات فلم يتمكن من ذلك رغم أنه استطاع استدراج كل من في القصر.

وكان المأمون أراد أن ينقص من قدر الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام بكل حيلة فلم يقدر على شيء من ذلك، فلما يأس من كل ذلك قال له مخارق المغني: يا أمير المؤمنين إن كان في شيء من أمر الدنيا فأنا أكفيك أمره!

فقعد مخارق بين يدي أبي جعفر عليه السلام فشهق شهقة اجتمع عليه أهل الدار وجعل يضرب بعوده ويغني، فلما فعل ساعة وإذا أبو جعفر عليه السلام لا يلتفت إليه لا يمينا ولا شمالا.

ثم رفع إليه رأسه وقال عليه السلام: اتق الله يا ذا العثنون.[٢٨] قال: فسقط المضراب من يده والعود، فلم ينتفع بيديه إلى أن مات. قال: فسأله المأمون عن

---

(٢٧) العثنون: اللحية الطويلة، وكان مخارق طويل اللحية.

(٢٨) بحار الأنوار ٧٦/ ٢٣٤ عن الخصال

حاله، قال لما صاح بي أبو جعفر فزعت فزعة لا أفيق منها أبدا[٢٩].

والحاصل أن تحقق الإبكاء[٣٠] والتأثير في السامع لا يجعل من اللحن

---

(٢٩) راجع الكافي ١/ ٤٩٤ عنه وعن مناقب بن شهراشوب في البحار ٥٠/ ٦١

ولا يفوتني التنبيه إلى أن هذه الرواية ذكرت أنه لم ينتفع بيده، وهذا لا يعني أنه ترك الغناء بعد هذه الحادثة، وإنما ترك الضرب بالعيدان والعزف على الآلات أما الغناء فالذي يظهر أنه لم يتركه إلى أخر عمره.

ولا يفوتني أيضًا التنبيه أن لمخارق المغني حادثة مهمة أوردها الشيخ الصدوق رحمه الله، وحاصلها أن مخارقًا دخل المدينة مع هارون الرشيد، فلما رأى هارون أساء إلى الإمام الكاظم عليه السلام ولم يكرمه، دخله الغيظ في ذلك، فاحتال على هارون وأخذ من ماله، وذهب به إلى الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام. وقال له: قد وقفت على ما عاملك به هذا الملعون، وما أمر لك به، وقد احتلت عليه لك، وأخذت منه صلات ثلاثين ألف دينار، وأقطاعا تغل في السنة عشرة آلاف دينار، ولا والله ياسيدي ما أحتاج إلى شيء من ذلك، وما أخذته إلا لك، وأنا أشهد لك بهذه الأقطاع، وقد حملت المال إليك. فقال عليه السلام: بارك الله لك في مالك، وأحسن جزاك ماكنت لآخذ منه درهما واحدا ولا من هذه الأقطاع شيئا، وقد قبلت صلتك وبرك، فانصرف راشدا، ولا تراجعني في ذلك، فقبل يده وانصرف. راجع بحار الأنوار ٤٨/ ١٢٩ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام

(٣٠) قال السيد محمد سعيد الحكيم دام عزه في ذكر المحرمات: (الثاني والثلاثون: الاشتغال بالملاهي، كضرب الاوتار والطبول والنفخ في المزامير وغير ذلك من الآلات الموسيقية، بالنحو المبني على التلذذ والطرب، على ما هو المعهود عند أهل الفسوق. وليس المراد استعماله عندهم فعلًا، بل كل ما يبتني على التلذذ اللهوي بالخروج عن مقام الجد والواقع الحاضر إلى نحو من العبث المبني على التوجه لباطن النفس وتنبيه غرائزها وهز مشاعرها بالإيقاع الموسيقي اشباعاً لرغبتها في المزيد من الابتهاج أو التفجع أو الفخر أو الغرام أو غير ذلك حسب اختلاف الأغراض.) منهاج الصالحين ١/ ٤٦٢

محللا مقبولا، إذ يتعارف عند أهل الباطل الإتيان بما يبكي، ولكن لا بد من الإبكاء وفق الإنشاد المتعارف عند أهل الإيمان، وقد تقدم كلام الشيخ الأنصاري رحمه الله وفيه إشارة إلى هذا الأمر.

الأوزان الدخيلة

والحاصل أن الإنشاد إذا جيء به بطرق أهل الملاهي والمنكرات عدّ غناءً محرمًّا، وإن لم يكن بطرقهم كان محللّا. وعلى التقديرين فإنه قد يكون متناسبًا مع قيم المجتمع وقد يكون مبتذلا منحطًّا وليد عادات دخيلة تعف النفس عنه.

يقول ابن خلدون: ويراعي فيه (في الشعر) اتّفاق القصيدة كلّها في الوزن الواحد حذرا من أن يتساهل الطّبع في الخروج من وزن إلى وزن يقاربه، فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من النّاس ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمّنها علم العروض، وليس كلّ وزن يتّفق في الطّبع استعملته العرب في هذا الفنّ وإنّما هي أوزان مخصوصة تسمّيها أهل تلك الصّناعة البحور. وقد حصروها في خمسة عشر بحرا بمعنى أنّهم لم يجدوا للعرب في

غيرها من الموازين الطّبيعيّة نظما.[٣١]

إن الانضباط في إيقاع القصيدة العربية وتكرره واتحاد قوافيها متفرع على انضباط وتقيد سلوكي في الذهنية العربية، هذه الأوزان -التي لم تعرف العرب غيرها- ناشئة عن مجتمع محافظ متقيّد بقواعده وقوانينه، وبدأ التحرر يغزو القصيدة العربية من الشعر الأندلسي، يعني من أوربا وتحديدًا أسبانيا! كانت قفزة في نظام الأوزان والقوافي، كانت فكرة وليدة ثقافة الغرب؛ وبلغ الشعر غاية التنميق في الأندلس، واستحدث الموشح بنظام جديد من الأوزان والقوافي، ونظمت به الموشحات الأندلسية المشهورة[٣٢]. استنبطه مقدم بن معافى القبري الأندلسي في أواخر القرن الثالث للهجرة ولما شاع التوشيح عندهم وأخذ به الجمهور، لسلاسته وتنميق كلامه، نسجت العامة من أهل

---

(٣١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٧٨٥

(٣٢) الموشحات الأندلسية: فنّ شعريّ مُسْتَحْدَث، يختلف عن ضروب الشعر العربي في القافية والوزن واللغة؛ فلمّا كانتِ القصيدة العربية تلتزم قافية واحدة، فإنّ للموشَّح قوافي مُتعدَّدة تتوزَّع على أقفالها وأبياتها. ولمّا التزمت القصيدة بحراً واحداً، فقد يُنظَم الموشَّح على بحرٍ واحد، وقد يُنظَم على بحريْن، وقد يخرج على أوزان العرب.

الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابًا[٣٣].

وتمرد المجتمع على آدابه الاجتماعية ينعكس في نظامه الشعري بتمرده على الأوزان المتعارفة، ويزداد الأمر وضوحًا في الشعر الحر الخالي من جميع القيود الذي لم يخرج إلا من مجتمع متحرر خال من القيم الإسلامية والآداب الاجتماعية الأصيلة.

ومنه يُعلم أن اختلاف الطباع كان سببًا في اختلاف الأوزان العروضية عند غير العرب عن أوزان العرب، ويعلم الوجه في شيوع أوزان في الشعر الشعبي كالفائزي -المتفرع عن بحر الرجز- في الخليج، ووزن كالموشح -المتفرع عن بحر الرمل- في النجف[٣٤]، ذاك يرجع إلى طبيعة المفردات وثروتها واستجابة الآذان للإيقاع وفق عاداتها وما نشأت عليه إلى الألحان.

---

(٣٣) راجع تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان ٣/ ١٣١

(٣٤) وحين شاع الرمل في الخليج، شاع بتفعيلة الهجري لا الموشح، بل لو نظم الفائزي بمفردات الريف العراقي لما تناسبت المفردات مع الوزن الشعري!

والضابطة في الأوزان على كل حال هي ضابطة الألحان نفسها، فالطرق المتعارفة في المجتمعات المحافظة منبثقة من نفس قيم المجتمع منسجمة مع أطباعه وطبيعته، والألحان المصطنعة المتكلفة تختلف عن الطبيعية الموروثة.

الأطوار التي جرت عليها السيرة

الأمر الوارد في الأخبار المتوجه إلى أصحاب الأئمة عليهم السلام من أهل الورع والدين والتقوى هو: (كما تنشدون عند قبره بالرقة)، وبعد أن تقدم تنقيح معنى الإنشاد عند العرب عُلم أن المطلوب في ذلك الطرق الطبيعية الشعبية في الإنشاد التي هي إفراز طبيعي للمجتمع، لا المحرّمة المشابهة لأهل الملاهي، ولا المصنوعة المتكلفة، ولا يستدعي الأمر دراسة للمقامات والنغم والفنون الموسيقية! بل أجمل ما يكون الرثاء حين يخرج من قلب صادق فيتجلى بعفويته على هيئة أصوات شجية.

وهذا ما جرت عليه السيرة بوضوح في رثاء أهل البيت عليهم السلام من زمن أبي هارون المكفوف والإمام الصادق عليه السلام، إلى غيره من الأخبار في الإنشاد عند الأئمة عليهم السلام، كخبر دعبل الخزاعي، وقد ورد أنه لما وصل إبراهيم بن

العباس ودعبل بن علي الخزاعي إلى الرضاعليه السلام وقد بويع له بالعهد أنشده دعبل: (مدارس آيات خلت من تلاوة)، وأنشده إبراهيم بن العباس: (أزالت عناء القلب بعد التجلد مصارع أولاد النبي محمد) فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم عليها اسمه. وقضية دعبل مفصلة ومشهورة.[٣٥]

أي أن الذي قامت عليه السيرة في زمن النص هو (الإنشاد) الطبيعي بطريقة العرب في نظمهم الشعر وإنشاده، لا الغناء المصطنع الذي كانت تتعاطاه الجواري في الجاهلية، والمترفون في عصر بني أمية، واستوردت مبادئه من شرق الدنيا وغربها في زمن بني العباس حتى نبغ وارتفع فصار فنًّا وصناعة: يضع الملحن لحنا، فينظم الشاعر على إيقاعه، ويترنم المغني وفق قواعده الموسيقية!

تاريخ الإنشاد

وجريان السيرة واتصالها بزمن النص في ذلك من الواضحات غير أن

(٣٥) راجع بحار الأنوار ٤٩/ ٢٣٤ (باب مداحيه وما قالوا فيه صلوات الله عليه)

الظروف في زمن الأئمةعليهم السلام تفاوتت سعة وضيقًا، فأما في زمن الإمام السجادعليه السلام فأكثر ما كان بكاء الإمامعليه السلام مع أهل بيته بمعزل عن سائر الناس وذلك لشدة التقية والتضييق عليه ولما للبكاء من بُعدٍ سياسي في وقتها لا يظهر أن الإمامعليه السلام دعا لإثارته وتهييجه، وإنما انعزل بأهل بيته يبكي على أبيه(٣٦)، وكان قد اتخذ منزله من بعد مقتل أبيه الحسين بن عليعليهما السلام بيتا من شعر وأقام بالبادية فلبث بها عدة سنين كراهية لمخالطة الناس وملابستهم(٣٧). نعم ظهرت في زمنه بعض المآتم ومراسيم النياحة أشهرها ما كان في حركة التوابين، إلا أن هذا لا يعد من سيرة المتشرعة وإنما عامة الناس ممن تأثر بواقعة الطف.

وتأسست النياحة أو الإنشاد في رثاء الحسينعليه السلام بشكله المنظم في عصر الصادقينعليهما السلام، لذلك أفرد المجلسيرحمه الله بابًا في البحار في سيرة الصادقعليه السلام

---

(٣٦) راجع بحار الأنوار ٤٦/ ١٠٨ (باب حزنه وبكائه على شهادة أبيه صلوات الله عليهما) ولقد أورد أبو الفرج الأصفهاني بعض الأخبار في دخول المنشدين على سكينة بنت الحسين وفاطمة بنت الحسين ورثائهم الحسينعليه السلام وكلها أخبار غير نقية سندًا ومتنًا مخالفة للثوابت فيما عرف عن آل بيت رسول اللهصلى الله عليه وآله من الستر والحياء والعفاء، فلم نوردها هنا لوضوح كذبها.

(٣٧) راجع بحار الأنوار ١٠٠/ ٢٦٦

ذكر فيه أحوال شعراء الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[٣٨] سوى ما تفرق من أحوال الشعراء والمنشدين في أبواب ما يتعلق برثاء الحسين عليه السلام وفضل البكاء عليه[٣٩]، ومن تلك الأخبار ما عن زيد الشحام، قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ونحن جماعة من الكوفيين فدخل جعفر بن عفان على أبي عبد الله عليه السلام فقرّبه وأدناه، ثم قال عليه السلام: يا جعفر. قال: لبيك! جعلني الله فداك. قال عليه السلام: بلغني أنك تقول الشعر في الحسين عليه السلام وتجيد؟ فقال له: نعم جعلني الله فداك، قال عليه السلام: قل! فأنشده -صلى الله عليه- فبكى ومن حوله، حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته. ثم قال: يا جعفر والله لقد شهدت ملائكة الله المقربون ههنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعتك الجنة بأسرها، وغفر الله لك. فقال عليه السلام: يا جعفر

---

(٣٨) راجع بحار الأنوار ٤٧/ ٣١٠ (باب مداحيه صلوات الله عليه)

(٣٩) راجع بحار الأنوار ٤٤/ ٢٧٨ (باب ثواب البكاء على مصيبته، ومصائب سائر الأئمة عليهم السلام..)، وكامل الزيارات الباب الثّالث والثّلاثون: (مَن قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبْكى)، ووسائل الشيعة ١٠/ ٤٦٤ (الإسلامية)، (باب استحباب إنشاد الشعر في رثاء الحسين عليه السلام) و(باب استحباب مدح الأئمة بالشعر ورثائهم به).

ألا أزيدك؟ قال: نعم يا سيدي. قال عليه السلام: ما من أحد قال في الحسين شعرا فبكى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له.[٤٠]

ويستفاد من هذه الرواية وغيرها أن هناك حالة عامة كانت في زمن الصادقين عليهما السلام من إنشاد الشعر والرثاء، وكان بعضهم معتادًا على إنشاد الشعر في محضر الإمام عليه السلام وبعضهم ينشد عند عامة الشيعة، والمستفاد من الرواية المتقدمة أن جعفر بن عفان الطائي رضي الله عنه كان معتادا على إنشاد الشعر ورثاء الحسين عليه السلام في مجالس عامة الشيعة حتى ذاع خبره وبلغ الإمام الصادق عليه السلام فطلب أن ينشده.

أما في زمن الكاظم عليه السلام فقد كانت التقية في أشدها والتضيقق كان في أوجه[٤١]؛ لذلك كانت هذه المظاهر غير عامة وكانت حالات الإمام عليه السلام غير شائعة، ولكن ولده الرضا عليه السلام حدّث عن بعض هذه الحالات بقوله: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكا وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي

---

(٤٠) بحار الأنوار ٤٤/ ٢٨٢ عن الكشي

(٤١) أفردنا رسالة حول التقية في زمن الإمام الكاظم عليه السلام.

منه عشرة أيام ، فاذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه.[٤٢] ولكن رغم ذلك لا يظهر أن هذه السُّنّة قد انقطعت وإنما بقيت مستمرة ولكن بشكل أقل شيوعًا، ومما ورد في ذلك ما حكي أن المنصور العباسي تقدم إلى موسى بن جعفر عليهما السلام بالجلوس للتهنئة في يوم النيروز وقبض ما يحمل إليه، فقال عليه السلام: إني قد فتشت الأخبار عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم أجد لهذا العيد خبرًا وإنه سنة للفرس ومحاها الإسلام، ومعاذ الله أن نحيي ما محاه الإسلام. فقال المنصور: إنما نفعل هذا سياسة للجند، فسألتك بالله العظيم إلا جلست، فجلس، ودخلت عليه الملوك والأمراء والأجناد يهنؤونه، ويحملون إليه الهدايا والتحف، وعلى رأسه خادم المنصور يحصي ما يحمل. فدخل في آخر الناس رجل شيخ كبير السن فقال له: يا ابن بنت رسول الله إنني رجل صعلوك لا مال لي أتحفك ولكن أتحفك بثلاثة أبيات قالها جدي في جدك الحسين بن علي عليه السلام:

---

(٤٢) بحار الأنوار ٤٤/ ٢٨٣ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام

عـجبـت لمصقـول عـلاك فرنده يـوم الهياج وقـد عـلاك غـبار[٤٣]

ولأسـهـم نفذتـك دون حرائر يـدعـون جـدك والـدموع غزار

ألا تغضغضت السهام وعاقها عن جسمك الإجلال والاكبار

قال عليه السلام: قبلت هديتك، اجلس بارك الله فيك، ورفع رأسه إلى الخادم وقال عليه السلام: امض إلى أمير المؤمنين وعرّفه بهذا المال، وما يصنع به؟ فمضى الخادم وعاد وهو يقول: كلها هبة مني له، يفعل به ما أراد فقال موسى عليه السلام للشيخ: اقبض جميع هذا المال فهو هبة مني لك.[٤٤]

والذي يستفاد من هذا الخبر أن الشيعة في ذلك الزمن كانوا يتوارثون

---

(٤٣) أصل هذا البيت يرجع إلى نواح الجن بعد مقتل الحسين عليه السلام حيث سمعت تنوح عند شجرة أم معبد التي نبتت بمعجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشهورة، وقد يبست تلك الشجرة وسالت منها الدماء بعد مقتل الحسين عليه السلام، وسمع في ليلة قتل الحسين عليه السلام الجن تنوح عند الشجرة بهذين البيتين:

يا ابن الشهيد وشهيدًا عـمه خيـر العمومـة جعفـر الطيـار

عجبًا لمصقول أصابك حده في الوجه منك وقد علاه غبار

راجع تفصيل القضية في بحار الأنوار ٤٥/ ٢٣٣

وهذا يؤكد أن الشيعة كانت تتوارث المراثي وتحفظها وتزيد فيها للبكاء والنياحة.

(٤٤) بحار الأنوار ٤٨/ ١٠٨ عن المناقب

هذه المراثي ولم تنقطع سيرتهم في إنشادها، وإنما التضييق والتشديد جعل أخبارها شحيحة، ولما احتاج المنصور أن يستدعي الإمام الكاظم عليه السلام في مثل هذا الظرف لسياسة الجند خرج لنا خبر هذا الشيخ وما حفظه من إرث جده.

أما في مرحلة الرضا عليه السلام فقد عادت فسحة جديدة للإمام عليه السلام وتليت مراثي سيد الشهداء عليه السلام في بلاط الخلافة وذلك لما نصّب الرضا عليه السلام وليًّا للعهد ودخل عليه دعبل وغيره ورثوا الحسين عليه السلام. (٤٥)

أما فترة الإمام الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام ففي واقعها كانت فترة عُزل فيها الأئمة عليهم السلام عن شيعتهم لفترات طويلة؛ الإمام الجواد عليه السلام في قصر المأمون والمعتصم، والإمامان العسكريّان في معسكر سامراء أقاموا إقامة جبرية ولم يكن تواصل الشيعة معهم بتلك السهولة والرقابة مشددة عليهم.

وبالرغم من ذلك يظهر أن سيرة الشيعة في الإنشاد ورثاء الأئمة عليهم السلام والحسين عليه السلام خاصة كانت مستمرة، فقد ورد عن أبي طالب عبد الله بن الصلت القمي رضي الله عنه قال: كتبت إلى أبي جعفر ابن الرضا عليهما السلام: تأذن لي أن

(٤٥) راجع بحار الأنوار ٤٩/ ٢٣٤ (باب مداحيه وما قالوا فيه صلوات الله عليه)

أرثي أبا الحسن -أعني أباه عليه السلام-؟ قال: فكتب عليه السلام إلي: اندبني واندب أبي.[٤٦] والندبة تكون بإنشاد الشعر للرثاء لا بكتابته فقط.

وروى ابن عياش مرثية لعلي بن أبي عبد الله الخوافي -وكان من أصحاب الرضا عليه السلام-، يقول ابن عياش: أنشدنيها علي بن هارون بن يحيى المنجم[٤٧]:

يا أرضَ طُوسٍ سَقــاكِ الله رحمَـتَهُ ماذا حَويتِ مِن الخيراتِ يا طُوسُ

طابَتْ بِقاعُكِ في الدنيا وطابَ بِهَا شَـــخْصٌ ثَوى بِسَنابادَ مَـرْمُوس

شَخصٌ عَزيزٌ على الإِسلامِ مَصرَعُهُ في رَحمَةِ الله مَغمورٌ ومَغْـمُوس[٤٨]

فالمرثية كانت تنشد في زمن الرضا عليه السلام، ويتوارثها الشيعة حتى أنشدت لابن عياش المتوفى في القرن الخامس.

ومن أشهر شعراء هذه المرحلة ديك الجن (٢٣٥هـ) ولم نجد له أخبارًا ترتبط مباشرة بالأئمة رغم إدراكه الأئمة من الكاظم إلى الهادي عليهم السلام لكن

---

(٤٦) راجع بحار الأنوار ٧٩/ ٢٦٣

(٤٧) علي بن هارون المنجم توفي ٣٥٢هـ راجع ترجمته في تاريخ بغداد ١٢/ ٦١٠ تحت رقم (٦٥١٩)

(٤٨) مقتضب الأثر ٤٧

وصلتنا جملة من مراثيه لسيد الشهداء، منها:

جاءوا برأسِكَ يا بنَ بنتِ محمدٍ متـرمّلاً بـدمـائه تـرميـلا

وكأنـما بـكَ يا ابـنَ بنتِ محـمدٍ قتلوا جهاراً عامدينَ رسـولا

قتـلوكَ عطشـــاناً ولمّا يرقبــوا في قتلكَ الـتنزيلَ والتـأويلا

و يكبّـرون بأن قُتلـتَ وإنـــما قتلوا بكَ التكبيرَ والتهليلا[٤٩]

وذكر أبو الفرج الأصفهاني أنه كان من ساكني حمص، ولم يبرح نواحي الشام، ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعا بشعره ولا متصدّيا لأحد. وكان يتشيّع تشيّعا حسنا، وله مراث كثيرة في الحسين بن علي عليهما السلام، منها قوله: (يا عين لا للقضا ولا الكتب بكا الرّزايا سوى بكا الطّرب) وهي مشهورة عند الخاص و العام، ويناح بها، و له عدّة أشعار في هذا المعنى.[٥٠]

وهذا ما يؤكد أن السيرة كانت جارية عند الشيعة في مختلف البلدان على إنشاد هذه المراثي والنياحة بها.

---

(٤٩) راجع أعيان الشيعة ٨/ ١٢

(٥٠) الأغاني ١٤/ ٢٨٧

وتظهر أسماء لشعراء آخرين كتبوا في رثاء الأئمة عليهم السلام، كأبي الغوث المنبجي (٢٥٤هـ)[٥١] الذي روى ابن عياش أن أبا منصور عبد المنعم بن النعمان[٥٢] أنشده، قال أنشدني الحسن بن مسلم الوهبي أن أبا الغوث المنبجي شاعر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنشده بعسكر سر من رأى. قال الوهبي: واسم أبو الغوث أسلم بن مهوز من أهل منبج، وكان البحتري يمدح الملوك وهذا يمدح آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكان البحتري أبو عبادة ينشد هذه الأبيات لأبي الغوث:

وَلَهْتُ إِلَى رُؤْيَاكُمْ وَلَهَ الصَّادِي يُذَادُ عَنِ الْوِرْدِ الرَّوِيِّ بِذَوَاد[٥٣]

ومن الشعراء أيضًا محمد بن إسماعيل الصيمري (٢٥٥هـ)[٥٤]، له قصيدة يرثي بها الإمام الهادي عليه السلام ويعزي ابنه العسكري عليه السلام أولها:

الْأَرْضُ حُزْناً زُلْزِلَتْ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتْ مِنْ جَزَعٍ أَثْقَالَهَا

إلى أن يقول:

---

(٥١) ترجم له السيد الأمين في أعيان الشيعة ٣/ ٣٠٥

(٥٢) ذكره الشيخ النمازي في مستدركات علم الرجال ٨/ ٤٥٨

(٥٣) مقتضب الأثر ٤٩

(٥٤) ذكره السيد الأمين في أعيان الشيعة ٩/ ١٢٣

عَشْرُ نُجُومٍ أَفَلَتْ فِي فُلْكِهَا وَيُطْلِعُ اللهُ لَنَا أَمْثَالَهَا

بِالْحَسَنِ الْهَادِي أَبِي مُحَمَّدٍ تُدْرِكُ أَشْيَاعُ الْهُدَى آمَالَهَا[٥٥]

ويؤيد كل ذلك أن من دأب العلماء عند ذكر سيرة الأئمة عليهم السلام ذكر أسماء شعرائهم، فذكروا أن السيد الحميري شاعر الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام وأن أبا هاشم الجعفري شاعر الإمام الجواد عليه السلام، وأن العوفي والديلمي والصيمري شعراء الإمام الهادي عليه السلام، وأن ابن الرومي شاعر الإمام العسكري عليه السلام[٥٦].

ولكننا نلاحظ أن أخبار هذه المراثي تتداول بين الشيعة ولا يبلغنا خبر المآتم في دور الأئمة عليهم السلام لما تقدم من فرض رقابة مبالغ فيها عليهم عليهم السلام، وموضع الشاهد من كل ذلك أن هذه القصائد كانت تنشد، وأن الراوي كان يتلقى بعضها إنشادًا وبعضها تحديثًا، فمثلا مما رواه ابن عياش، قال: حدثني أبو محمد عبد بن محمد المسعودي، قال: حدثني المغيرة بن محمد المهلبي، قال:

---

(٥٥) مقتضب الأثر ٥٢

(٥٦) راجع أعيان الشيعة ج٢ ومنتهى الآمال في ذكر أصحاب الأئمة عليهم السلام حيث ذكر الشعراء منهم.

أنشدني عبد الله بن أيوب الخريبي الشاعر -وكان انقطاعه إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام- يخاطب ابنه أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام بعد وفاة أبيه الرضا عليه السلام من كلمة له لم نكتبها على وجهه، بل ذكرنا موضع الشاهد، يقول نظم: (يا ابْنَ الذَّبِيحِ وَ يَا ابْنَ أَعْرَاقِ الثَّرَى طَابَتْ أُرُومَتُهُ وَ طَابَ عُرُوقَا).[٥٧]

والراوي هنا يفرق بين ما يبلغه تحديثًا وما يبلغه إنشادًا[٥٨]، والذي يهمنا في كل ذلك أن إنشاد المراثي في آل البيت عليهم السلام بمعناه اللغوي بطريقة العرب كان متعارفًا جرت عليه السيرة إلى زمن العسكريين عليهما السلام، بل إلى الغيبة الكبرى فكانت تنشد هذه القصائد إلى الشيعة.

وهذا هو (الإنشاد) الذي عليه المؤمنون منذ تلك العصور إلى يومنا هذا، نعم ثمة فرق بين طرق العرب في الإنشاد وغيرهم، فالعرب ترثي شعرًا والعجم ترثي نثرًا، وطرقهم متفاوتة[٥٩]، والجامع بين كل ذلك أن المتوارث

---

(٥٧) مقتضب الأثر ٥٠

(٥٨) في علم الدراية هناك دقة وتفريق بين قولهم: (سمعت) و(حدثني) و(أنبأنا) وغيرها من عبائر تحمّل الحديث، والملفت هنا استخدام تعبير (أنشدني) عند تحمل الخبر.

(٥٩) سيأتي بيان جملة من هذه المطالب في مقالات قادمة بحوله تعالى.

عن السلف الصالح هو الإنشاد الطبيعي البسيط لا الغناء الصناعي، وإن كان حزينًا يستدر الدموع.

ولم يكن هذا الغناء يومًا ما أمرًا متعارفا بين المتشرعة، حتى في هذا العصر الذي بلغ الابتذال ما بلغ في الألحان، فإن أهل الورع والدين ينزهون مجالسهم عن هذه الطرق المبتذلة.[٦٠]

شروط الألحان في المراثي

المقدار الذي ينبغي تنقيحه هنا أن السيرة جرت على (الإنشاد) والرثاء بألحان شجية حزينة (أنشدني بالرقة)، (كما تنشدون عند قبره) بغرض إبكاء الناس على مصائب أهل البيت عليهم السلام، وهذه الألحان مشروطة بأمرين:

الأول: ألا تكون موافقة لألحان أهل الملاهي والفسق والفجور المحرمّة شرعًا، فإنه لم يعهد في الأئمة وأصحابهم من تعاطاها ولم تكن متداولة إلا عند

(٦٠) ولا يخفى أن الكلام كله يدور حول الألحان والأوزان الشعرية، أما البحث عن مزج المعازف والموسيقى مع هذه الألحان فلا شك أن سيرة لم تقم بين المتشرعة على ذلك، ولا أظن أن أحدًا يمكن أن يدّعي ذلك أصلا.

الفئات المنحطة في المجتمع ثم صارت مألوفة في قصور بني العباس، وإن ورد أن البعض أنشد المراثي بهذه الألحان فإنه لم يرد إمضاء من السيرة عليها قطعا.

الثاني: أن تكون هذه الألحان إفرازًا طبيعيًّا لذائقة المجتمع البسيطة والشعبية، وليست ألحانًا صناعية فنيّة متولدة عن دراسة المقامات ومعرفة نظم النغم وقوانينه، فتجذب الناس إلى البكاء بما يلائم طبائعهم ووجدانهم، لا أن تبكيهم بإثارة كوامن الشهوات وتحريكهم طربًا.

والمؤسف أن كثيرًا من الألحان المصنوعة اليوم راجعة إلى إطراب السامع وتحريك كوامنه، فإن تأملت فلن تجدها إلا أنغامًا مثيرة، لا علاقة لها بالطبائع، أجنبية تماما عن قوله: (كما تنشدون) فلا هي حداء بدوي، ولا هي نهمة ملاح، ولا هي ترقيص الطفل في مهده، ولا هي زفرة ثاكلة!

قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية، لا يجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة

وقلوب من يعجبه شأنهم.[٦١] وقال ﷺ: إن من أجمل الجمال الشعر الحسن ونغمة الصوت الحسن.[٦٢]

الخاتمة والنتيجة

إن الذي جرت عليه السيرة بين المتشرعة في الرثاء والنياحة هو (الإنشاد)، وبعد الفراغ من تعريف الإنشاد وبيان مصاديقه وضوابطه، وبعد الفراغ من كون السيرة بين المتشرعة لا يمكن أن تجري على نمط محرّم من أنماط النياحة والرثاء فإننا نخلص إلى أن الثابت الذي جرت عليه السيرة هو الإنشاد الطبيعي لا المصطنع.

ومن ذلك يُعلم أن دخول أساتذة الصوت والمقامات وسائر الفنون الصوتية لتعليم الأطوار الحسينية من أولى خطوات إخراج النياحة الحسينية عن جادتها الصحيحة وإدخالها في دائرة الفنون الغنائية لا الإنشاد الحسيني المتوارث الذي حث عليه الشارع.

---

(٦١) الكافي ٢/ ٦١٤

(٦٢) الكافي ٢/ ٦١٥

وكذلك يُعلم أن النسق المتعارف للأطوار إذا كان إفرازًا طبيعيًّا للبيئة والمجتمع والعادات الأصيلة، أي كان ضمن دائرة (كما تنشدون) المخاطب بها أهل الدين من أصحاب الأئمة عليهم السلام كان الإنشاد مقبولا.

وهذه هي الطريقة المتوارثة عن السلف الصالح، في النعي وفي قصائد اللطم، بحيث لو استمعت إلى تراث الخليج دون أن تعرف القارئ لنسبته إلى الخليج، ولو استمعت إلى تراث النجف لعلمت القارئ نجفيًّا، ولو استمعت إلى تراث الريف والبادية لنسبت النياحة إلى أهلها، ولو استمعت إلى نياحة غير العرب من الفرس والترك والهنود وكنت عارفًا بطباعهم لنسبت كل لحن إلى أهله؛ وسيكون معرفة منشأ اللحن سهلا إذا كان المنشد ينشد كما ينشد قومه.

أما المقطوعات المستوردة والملحنة صناعيًّا غير المتوافقة مع السيرة فهي دخيلة على المؤمنين، فأين ريف العراق ولطم الشور[٦٣]؟ وأين طبيعة رجال

(٦٣) ليس المراد من (الشور) كل لطم بإيقاع سريع، فإن ذلك قد يقع كثيرًا في ذروة العزاء كما في ركضة طويريج المعروفة، وإنما المراد الكيفية الدخيلة التي شاعت مؤخرًا ولم تعهد يومًا في المؤمنين وأهل الصلاح من أي بلد، ما شكّل نشازًا على الساحة الحسينية، لست تدريه نياحة أو ..!

الخليج والأطوار الناعمة؟ وأين تقطيعات الأوزان الهندية من ذائقة أبناء النجف الأشرف؟

نعم، الالتزام بهذه الطرق المتعارفة والمتوارثة لا يعني التعصب لإرث قومي أو وطني ما يخرجنا من محذور ليدخلنا في آخر! وإنما الكلام فيما يحاكي الوجدان والفطرة السليمة وفق الضوابط الشرعية.

لذا تعورف ولم يقبح استيراد الخطباء في الخليج ولبنان وغيرها أطوار أهل العراق الأصيلة، واشتهرت بعض الأطوار البحرانية بين خطباء كربلاء، وربما أعيدت صياغة هذه الألحان بما يناسب مجتمعها الجديد، فقيل: الطور البحراني بالطريقة الكربلائية، كل ذلك شريطة أن لا تمجّها الأعراف أو يستهجنها المجتمع.

ويمكن استنباط ذلك من كلام الإمام الصادقعليه السلام لأبي هارون المكفوف، فرغم أن الإمامعليه السلام حجازي لكنه طلب من أبي هارون -وهو من الكوفة- أن ينشد كما ينشدون.

وهذا يعني أنه لا موضوعية لطريقة بلد بعينه، وإنما المطلوب الطرق

التي تعاهدتها المتشرعة، وما كان متوافقًا مع دينهم وخلقهم وعاداتهم وحاكى وجدانهم وإيمانهم ببساطته وعفويته، لا النشاز الدخيل المتكلف.

إذا لم تكن الألحان على طبيعتها وطريقتها المتوارثة عن السلف الصالح عُلم أنها دخيلة لم تجر عليها سيرة، لذا حق أن تنبذ من مجالس المؤمنين.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين...

النجف الأشرف

١٥ من ذي القعدة ١٤٤٥هـ

حسن يوسف بن نخي

تم النشر إلكترونيًا على قناة (باب القبلة) وهذه النسخة غير معدة للطباعة